نحن في صراع دائم

للأستاذ حسين الظريفي

كان يعتقد فى العقل أنه ليس إلا ما تمليه علينا تجارب الحياة ؛ فالطفل يولد ولا عقل له ، حتى يأخذ عن الوسط ما هو فيه ، ويظل رهين شروط حياته الخاصة والعامة بلا حد ولا أمد ، ومن شب عن الطوق وتفرد عن المجموع فقد أوتى حظاً كبيراً

تلك كانت نظرة العلم إلى العقل من حيث يظهر ومن حيث يتطور . غير أن فقهاً تمخضت عنه بداية القرن الحديث ، نظر إلى هذا العقل الذى يولد بعد الولادة ويظل محدوداً فى نموه وسموه بين المهد واللحد ؛ فأحاط به ثم تجاوزه إلى ما وراءه فأيقن أن هناك عقلاً باطناً يكمن وراء عقلنا الظاهر أورثتنا إياه قرون تتصل بأول الخليقة ؛ فهو ميراث ماضينا من حيث يبدأ إلى حيث يتصل به حاضرنا الذى نحن فيه ، ولا تزيده الأحقاب إلا شدًّا ومدًّا

وقد أسفرت بحوث العلم عن إثبات ما لهذا العقل الكامن من الأثر البالغ ، فى تلوين النزعة والفكرة والإرادة واقتيادها إلى حيث يريد ، على غير شعور منا بما نفعل وما لا نفعل

إن موضع القوة فى هذا العقل قائم وراء ما له من مظهر الخفاء ؛ فى غفلة عما نعيه ونسترعيه من شئون عقلنا الشاعر ، يقوم العقل الباطن بعمليات التفاعل حتى تنبعث من أعماقه كلته الآمرة أو الزاجرة فتدين لها الجوارح . ونحن لا نعى ما يدبر ويقرر إلا ذلك الأثر الذى نقوم به ، غير شاعرين بالبواعث

إن قوة العقل الباطن آتية مما يبطن فى فعله وانفعاله ، فى ذات نفسه وفيما وراءه من عقل واع تحيط به الظروف والوقائع . فالرغبة فيه خفية يضغط عليها ما تواضع عليه الناس من عرف وتقليد . والحركة فيه قائمة دائمة ولكنها فى قعر غير قريب ، وما أقول باستحالة الوصول إلى قاعه البعيد . ولكن دون ذلك أهوال

هنالك حيث لا يصل سمع ولا بصر ، إلا ما ندر ، تزدحم الرغائب وتتصادم ، ويعلو بعضها على بعض درجات وطبقات ، وكل رغبة منها تريد بلوغ القمة والخروج من الزاوية إلى النافذة ، لتلقى النور ، وتعرب عن نفسها بأعمال الجوارح ؛ ولكنها لا تكاد تصل السلم حتى تجد عليه رقيباً عتيداً يدفع بها إلى الحضيض . وهكذا تبقى الرغائب حية فى القبر تتنازع وتتصارع والرقيب يأبى عليها إلا أن تنحدر إلى ما وراء مجرى الشعور ، مهما استحرّ هناك القتل وطال عليه الأمد . وما ذلك الرقيب إلا الضمير

فالرغبة الجامحة تصدم بقوة الضمير ، فيضغط عليها حتى تنحدر إلى قاع النفس وتستقر فيه ، غير قانطة من بلوغ منطقة الوعى من العقل وفرض نفسها عليه ، وتحريك الجوارح به وفق ما تريد .

وما دامت الرغائب محجوراً عليها فى قرارة النفس ، فإنها تبقى فى نزاع لا يهدأ ، تستنفد فيه ما هى بحاجة إليه مما تملك من طاقة . ونحن إن لم نشعر بجلبة هذا الصراع فى داخل النفس فإن تأثرنا به ولا ريب كبير . وقد تبلغ شدة التنازع بين الرغائب إلى حد تبتلع فيه كل نشاطنا ، حتى نظهر وكأنا لا نملك شيئاً من قوة الاندفاع إلى العمل وتجللنا مظاهر التردد والخمول .

إن الرغبة المقموعة تريد حرية التصرف فيأبى عليها العرف الاجتماعى إلا أن تقهر ، حتى إذا كثرت الرغائب المقهورة واستطال عليها الزمن بلغ التنازع فيما بينها ذروته وأصبحنا ونحن من أنفسنا فى ساحة حرب تضيع فيها الجهود سدى . ذلك لأن من طبيعة الرغبة أن تمتلك حرية الاستمتاع بالإرادة ، فإذا هى قهرت وانحدرت إلى ما وراء الشعور ، اتخذت لنفسها هناك موقفاً عدائياً لكل رغبة فيه ، تليدة أو جديدة ؛ حتى إذا ازدادت الرغائب وتمادت على ما هى فيه من تكالب على الظهور ، نشأ عندنا ما يعبر عنه بالقلق الداخلى أو النفسى ، ونحن فى مثل هذه الحالة لا نشعر إلا بذلك الشعور الغامض العميق الذى تسودنا فيه بلبلة الفكر فلا نعرف ما ينبغى أن يدرك أو يترك . وبهذه الحرب الدائرة بين مختلف الرغائب نستهلك الكثير مما نملك من طاقة عصبية وذهنية ، فيبدو احتياجنا إلى مثل هذه الطاقة فى أعمال وعينا الأخرى ، ونظهر وكأنا عاجزون .